﴿..وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾

الخشوع، وقسوة القلب، في القرآن الكريم

الشهيد السيّد عبد الحسين دستغيب رحمه الله

الخشوع «تذلّلٌ وتصاغرٌ ممزوجٌ بالمحبّة، قبالةَ مُنعِمٍ عظيم»، وهو يتأتّى من أمرين اثنين:

الأمر الأوّل: إدراكنا لعظمة هذا المنعِم وقدرته واستطاعته، وينتج عنه شعورٌ بالمهابة تجاهه.

الأمر الثاني: تلمُّسنا لكرمه وإحسانه المتوالي، ويثمر ذلك محبّةً له في قلوبنا.

ومثال ذلك: خشوعُ وليِّ السلطانِ المقتدرِ قبالة مولاه؛ فهو يُدرك أولاً منزلة السلطان ومبلغ قدرته، فتتولّد من ذلك في قلبه مهابة له. وهو يعلم، ثانياً، أنّ كل ما يتقلّب فيه من مال وجاه وعزّ، إنما هو من مولاه السلطان... فيواجهه، نتيجة هذين الأمرين، بقلبٍ خاشع وبدَنٍ خاضع.

الهيبة والمحبة نتاج المعرفة

وبناءً على ما تقدّم، نقول:

إنّ صاحب المعرفة؛ أي مَن عرف في نفسه الحقارة والعدَم، وعرف في ربّه العظمة والوجود المطلقَين، بل انحصار القدرة والعظَمة في عالَم الخلْق به، تظهر في قلبه الهيبة لله عزّ وجلّ.

ومن ملاحظة نِعَم الخالق التي لا تُحصى، عليه وعلى الآخرين، وملاحظة أنّه لا منعِم غيره سبحانه، تظهر في قلبه محبةُ الله سبحانه، عندها ينصرف إلى إظهار عبوديته وأداء شكر إنعامه، ويخاطب المنعِم العظيمَ الشأن، ويناجيه ليحقّق لنفسه الفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

وفي المقابل، مَن يتوهّم أنّ له أو لغيره عظمةً وقدرة، أو ينسب نِعم الله التي لا تحصى إلى نفسه، أو إلى مخلوقٍ آخر، فهو محرومٌ من الوصول إلى مقام الخشوع لله عزّ وجلّ. وبعبارة: ما دام معجباً بنفسه، ويتخيّل أنّ النِّعم منه أو من مخلوقٍ آخر على نحو الاستقلال، فليس له من حقيقة الإيمان وآثاره نصيب.

ومَن كان هذا دَيدنه ومعتقده دخل في زمرة «أصحاب القلوب القاسية» بالمفهوم القرآنيّ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ سببه أنّ جميع الأسباب الطبيعية تنتهي إلى الذات الإلهية، وليس خافياً أنّ ملكوت جميع الأشياء يتّصف بالشعور والإدراك.

قال بعضهم في تفسير هذه الآية: «هذه القلوب أشدّ قسوة من الصخر الصّلد، لا هي تقبل الحقّ ولا هي ذات حياة معنوية وكمال عقليّ، لا تفور من داخلها عواطف الخير ولا تجد النصيحة والحكمة والعِبرة، من آذانها وعيونها، سبيلاً إلى ضميرها ووجدانها الجافّ والميّت، ولا تحني رأسها أمام العظمة والقدرة والآيات المحسوسة، مع أنّ صخور الجبال الشامخة تتساقط أمام قدرة الله وقهْر آياته».

وسبب قسوة قلوب هؤلاء إلى هذا الحدّ، ناجمٌ من آثار أعمالهم التي أفقدت قلوبهم القابلية التي كانت موجودة فيها. وأمّا كون قلوبهم القاسية أشد قسوة من الصّخر، فمردّه إلى ثلاثة أمور:

* المقال مختصر نقلاً عن كتاب (القلب السليم:٢/ ٢٢-٢٤)، ترجمة الشيخ حسين كوراني

١) كثيراً ما ينبع الماء من باطن الصخور، إلّا أنّ هذه القلوب القاسية لا ينبع منها شيء.

٢) يتشقّق الصخر بسبب عوامل الخلقة، ويخرج منه الماء، إلّا أنّ قلوب هؤلاء لا تصلها المواعظ والعِبَر، ولا يرشح منها الخير.

٣) تنحني الصخور أمام قهر الله تعالى، إلّا أنّ قلوب هؤلاء لا تخضع أمام عظَمة الحقّ وآياته.

الاستكبار عن التضرّع

قسوة القلب معناها تحجّره في مقابل لِينه، بحيث لا يتأثر لرؤية المشهد أو سماع الحديث المؤثّرين عادةً. وقد تقدّم أن القسوة ثمرة الذنوب والمعاصي، كما في قوله تعالى حكايةً عن بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً..﴾. والمعنى: أن بني إسرائيل نقضوا العهد الذي كانوا قد عاهدوا الله عليه؛ من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرُّسُل، فعاقبهم سبحانه بالطّرد من رحمته وجعل قلوبهم قاسية؛ أي حجب عنهم الألطاف التي تلين القلوبُ بها، فرسخت قلوبهم في القسوة، ولم يعودوا يتأثّرون بمشاهدة الآيات واستماع التخويفات.

كذلك، يبيّن الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله في الآيتين ٤٢ و٤٣ من سورة الأنعام المباركة سببَ مكابرة المستكبرين عن التضرّع وطلب العفو: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾.

والمعنى: أنه عزّ وجلّ أرسل إلى أممٍ سابقة أنبياء ورُسُلاً، ثمّ ابتلى تلك الأمم بأنواع الشدائد والمحَن لكي تلين قلوبها وتصير جديرةً بقبول دعوة الأنبياء في توحيد الله والتضرّع إليه، إلّا أنّهم لم يرجعوا إلى ربّهم، حتّى عند مواجهة المصائب والمنغّصات والبليّات، ولم يتذلّلوا له، ولم تتأثّر قلوبهم، بل ظلّوا منهمكين في أعمالهم الشيطانية التي تحجبهم عن الله، واعتمدوا الأسبابَ الظاهرية متوهّمين أنّ صلاح أمورهم جميعاً مرتبط بها.

ثمّ يبيّن الله تبارك وتعالى في الآية التالية من السورة نفسها، طبيعة العقاب الذي ينطوي على الاستدراج: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

والمعنى: أن قُساة القلوب هؤلاء، لمّا تمادوا في استكبارهم عن التضرّع، والإعراض عن الآيات والتخويفات، فتح الله عليهم أبواب النّعَم في كلّ المجالات، ففرِحوا بها وظنّوا أنّهم استغنوا عن الله، ثمّ ابتلاهم فجأة بالعذاب من حيث لا يحتسبون..

الخشوع تذلّلٌ وتصاغرٌ ممزوجٌ بالمحبّة، قبالةَ مُنعِمٍ عظيم

قسوة القلب ثمرة تراكُم المعاصي، وحجابٌ دون الاعتبار بالآيات والمثُلات

رحلة في ستة عوالم متخيلة
سؤال القرن: أيّ عالَم سينتصر؟

د. حسام مطر*

بدأت منشورات جملة من مراكز الدراسات والمطبوعات الأميركية ذات الاتجاه الليبرالي، تعكس عمقَ القلق السائد على النظام الدولي الليبرالي الحالي. وتسود هذه الأوساط كتابات حول أزمة الليبرالية الحالية في النظام العالمي، ونقاشات حول ما إذا كانت هذه مجرّد أزمة عابرة اعتادت الليبرالية على تجاوزها، أم أنّها تواجه شيئاً غير مسبوق؟ وتالياً كيفية الاستجابة، وما هي البدائل الممكنة للنظام الحالي إن كان لا بد من بديل؟

في الجواب عن السؤال أعلاه، استعرضت مجلّة «فورين أفيرز» الأميركيّة في عددها الصادر (تموز/ آب ٢٠١٨) آراء مجموعة من الباحثين والمفكّرين حول ستّة «عوالم» آتية مفترضة، يصحّ القول إنّها متفاعلة ومتداخلة، وغالباً متضاربة، إلّا أن ما يجمعها في الغالب هي أنها تنبئ عن مستقبل مقلق للبشرية.

العالم الواقعي: صعود الصين؟

أوّلاً: لدينا «**العالم الواقعي: يتغيّر اللاعبون، لكن تبقى اللعبة**» (ستيفان كوتكين)، وفي هذا العالم هناك قواعد موضوعية ثابتة حيث الصراع هو الأصل، والسعي للنجاة والأمن والقوّة هو مراد الجميع. ويعود هذا «**العالم**» للصعود بعدما ظنّ كثيرون أنّ العولمة والليبرالية تجاوزت حقبة لعبة «**الجيوبولتيك**» وصراعات القوى الكبرى. بناءً عليه، فأحداث هذا العالم ستقودها سياسات القوى الكبرى، ولذا فإنّ مسار هذا القرن مرتبط إلى حدّ بعيد بالشكل الذي سيتّخذه التنافس الصيني ـ الأميركي.

يرى كوتكين تماثلاً بين سماح بريطانيا، مملكة التجارة الحرّة، بصعود ألمانيا التوسّعية في بدايات القرن العشرين، مع ما تفعله الولايات المتحدة مع الصين. بينما لدى الليبراليين حجّة مضادّة بأنّ من شأن دمج الصين في النظام الدولي أن تقوّي الاتّجاهات الليبرالية داخل الصين وتُشجّعها على التحوّل والاندماج السلمي في النظام، في ظلّ قيادة الولايات المتحدة. إلّا أنّ ما حصل، بحسب كوتكين، هو أن الصين نجحت في بناء اقتصاد سيصبح أكبر بشكل مستدام من الاقتصاد الأميركي، من دون أن تصبح الصين ليبيرالية، ومن دون أن تعاني من الشمولية في الوقت ذاته.

في المقابل، وقع الغرب في الشلل الداخلي بسبب تجاهل نخبته الآثار الاجتماعية والاقتصادية للعولمة في الداخل، وهي أدّت إلى تفجير تناقضات داخلية وقادت إلى ظهور الشعبوية والقومية. لكن على المدى البعيد، ورغم هذه التحولات، فإنّ الديكتاتورية مع قوّتها تبقى هشّة، في حين مهما بدت الديموقراطية مثيرة للشفقة تبقى مرنة، يقول كوتكين.

«لا مفرّ من الليبرالية»!

ثانياً: لدينا «**عالم ليبرالي: النظام المرن**» (دانيال ديودني ـ ج. جون إيكنبري)، وهو عالَم يعاني من انتكاسات وتراجع وتحدّيات، «إلّا أنّ النظام العالمي الليبرالي لا يزال متيناً بشكل ملحوظ، وهذا مرتبط بنموّ أشكال الاعتماد المتبادل في مجالات متزايدة تدفع الجميع للعمل معاً، وتزيد من الحاجة إلى المنظّمات والترتيبات الدولية».

تتعدّد أزمات العالم الليبرالي، حيث وبعد عقود على اختفائها المفترض في الغرب، عادت «القوى المظلمة للسياسة العالمية»،

* أكاديمي وباحث لبناني. المقال مختصر عمّا نُشر في صحيفة الأخبار اللبنانية (العدد ٣٥٩٦)

أي اللاليبرالية والقومية والمطالِبة بتغيير إقليم الدولة، لتؤكّد نفسها. هذا التراجع العامّ في الديموقراطية الليبرالية حول العالم يبدو أنّه من عوارض مرض النظام العالمي الليبرالي. إلّا أنّ الكاتبين ينظران بكثير من الأمل والثقة إلى مستقبل العالم الليبرالي لأسباب عدة:

١) ليس محتوماً أنّ التاريخ سينتهي بانتصار الليبرالية، ولكن الذي لا مفرّ منه أنّ أيّ نظام عالمي لائق لن يكون إلّا ليبرالياً.

٢) اللحظات الثورية غالباً ما تفشل في إحداث تغيير مستدام، ولذا من غير الواقعي التفكير بأنّ سنوات محدودة من الديماغوجية القومية ستؤدّي إلى تراجع دراماتيكي لليبرالية.

٣) عودة المنافسة الأيديولوجية ستدفع إلى تعزيز النظام الليبرالي وإجراء إصلاحات داخلية.

٤) مؤسّسات النظام الليبرالي الدولي لم تنشأ بالصدفة، بل كمنتجات لمصالح عميقة.

العودة إلى الهويّة الكامنة

ثالثاً: لدينا «**العالم القَبَلي: هويّة الجماعة هي كلّ شيء**» (آيمي تشوا) وهو عالَم صاعد، ومصدر قوّته الأساسي أنّه مرتبط بالطبيعة البشرية، فالقبَلية غريزة أساسية، حيث إنّ «البشر هم كائنات قبلية ونحن بحاجة إلى الانتماء إلى جماعات».

وبعكس التفاؤل الليبرالي، تذهب «تشوا» إلى أنّه في السنوات الأخيرة عادت القبلية لتمزّق نسيج الديموقراطيات الليبرالية في الدول المتقدّمة.

ترويض الرأسمالية بالماركسية!

رابعاً: عادت لتتجلّى نبوءات ماركس في «**عالم ماركسي: ماذا تتوقّع من الرأسمالية**» (روبين ماغيز)، حيث تتزايد في أميركا وأوروبا اللامساواة، وتتراجع الأجور، وتتضخّم أرباح الشركات، وتضمر الطبقة الوسطى، وتُجوّف الديموقراطية التي يجري استبدالها بحكم التكنوقراط لنخب معولمة.

التحدّي اليوم هو الوصول إلى ملامح لاقتصاد مختلط قادر على تأمين ما أنجزه العصر الذهبي، بحسب الكاتب، وهذا يستلزم تبنّي روح ماركس، أي الاعتراف بضرورة ترويض الأسواق الرأسمالية، وإعادة إحياء الديموقراطية الاجتماعية.

الذكاء الاصطناعي

خامساً: نحن نرى بزوغ «**عالم التكنولوجيا: أهلاً بالثورة الرقمية**» (كيفين دروم)، حيث يدخل العالم فجر الثورة الصناعية الثانية، أي الثورة الرقمية، والتي سيكون تأثيرها أعظم من الثورة الصناعية الأولى للقرن التاسع عشر التي سمحت بصعود طبقة وسطى مع ضغط حقيقي لأجل الديموقراطية. ما قد يغيّر الأمور هو مسألة الذكاء الاصطناعي والذي يتقدّم بثبات، ولكن ما زلنا في مرحلة المخاض، ولنتجاوزها هناك حاجة إلى أجهزة بقوة الدماغ البشري

تجاهلُ النُّخَب الغربية الآثارَ الاجتماعية والاقتصادية للعولمة، أدّى إلى تفجير التناقضات وظهور الشعبوية والقومية داخل بلدانها

تتزايد في أميركا وأوروبا اللامساواة، وتتراجع الأجور، وتتضخّم أرباح الشركات، وتضمر الطبقة الوسطى، وتُجوّف الديموقراطية التي يجري استبدالها بحكم التكنوقراط لنُخب معولمة

وبرمجيات قادرة على أداء كلّ المهام البشرية، الأمر المتوقّع حدوثه بحلول سنة ٢٠٤٥م.

الاحتباس الحراري

سادساً: نتّجه نحو «**عالم محتبس حرارياً: لماذا يهمّ التغيّر المناخي أكثر من أيّ شيء آخر**» (جوشوا بوسبي). في هذا العالم يصبح خطر التغيّر المناخي لا يقلّ عن أيّ من المخاطر الكبرى التي تهدّد العالم، والتي ستحدّد شكل هذا القرن. لقد ازدادت حرارة سطح الأرض ١,٢ درجة مئوية منذ الثورة الصناعية، فيما هناك إجماع علمي على أنّ الحدّ الأقصى للزيادة قبل أن يحدث تغيّر مناخي خطير هو درجتان فقط. في حال تحقّق ذلك يعني أنّنا سننتقل إلى عالم من الكوارث الطبيعية، وهو ما سيترك تأثيرات **جيوجوليتكية** مخيفة، ويطلق شرارة للاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية.

وفي هذا السياق، يؤكد عدد حديث لمجلة الـ«إيكونوميست» (أيار ٢٠١٨) أنّ منطقة الشرق الأوسط ستشهد مزيداً من تراجع كميات المتساقطات وموجات الحرّ والعواصف الرملية. ومن المتوقع أن ترتفع درجات الحرارة في المنطقة بضعف المعدل العالمي. وبحسب المقياس العالمي للرطوبة والحرارة فإنها ستزداد حتى عام ٢١٠٠ بشكل يجعل منطقة الخليج غير قابلة للسكن. فيما كشفت الأقمار الصناعية أن نهرَي دجلة والفرات خسرا من المياه العذبة بين عامي ٢٠٠٣- ٢٠١٠ ما يوازي كمية المياه في البحر الميت.

هذا التحدي، بحسب «بوسبي»، يستلزم مستويات غير مسبوقة من التعاون العالمي، لا سيما في الصين والولايات المتحدة، فدورهما مركزي في الاستجابة لتحدي تغيّر المناخ (كلاهما مسؤول عن ٤٠٪ من الانبعاثات).

خلاصة واستنتاج

أربعة من أصل ستة عوالم جرى عرضها، تقدّم صورة سوداوية للمستقبل المنظور، فيما يتخبّط العالم الليبرالي، ويتأرجح العالم التكنولوجي بين وعوده وعواقبه.

العوالم الواقعية، والقبلية، والمحتبسة حرارياً، هي إلى حدّ بعيد عالم واحد بأوجه مختلفة، عالم يعزّز الميل للحرب، والتنافس، والصراع، والمصالح الذاتية الضيّقة، والفوضى العالمية، ويتعزّز كلّ ذلك بإخفاقات العالم الليبرالي والعوارض السلبية للعالم التكنولوجي.

الثورة التكنولوجية الجارية، لا سيما المتعلقة بالذّاتا، تعزّز من احتكار القوّة وقدرات السيطرة، وكذلك تُعمّق الفوارق الهائلة بين شمال العالم وجنوبه (على سبيل المثال، حالياً تتلف أوروبا سنوياً ٥٠ مليون طن من الفاكهة والخضر نظراً إلى أن شكلها سيّئ، فيما يموت ٣ ملايين شخص جوعاً في دول الجنوب)، والتي بدأت تتوسع في الشمال نفسه.

يلفت «كاي فو لي» وهو أحد أبرز خبراء الذكاء الاصطناعي المعاصرين، إلى أنّ الخطر الأكبر في ثورة الذكاء الاصطناعي ليس فقدان الوظائف بل فقدان المعنى. فالثورة الصناعية غسلت أدمغتنا وجرى إقناعنا أن العمل هو سبب وجودنا وهو ما يحدّد معنى حياتنا. إلا أنّ «لي» اكتشف، بعد تجربة الإصابة بمرض السرطان والشفاء منه، أننا «**موجودون من أجل الحب... وهذا ما يميّزنا عن الذكاء الاصطناعي... فنحن نتميّز بالإبداع ثم الرحمة والحب والتعاطف**». هنا يصبح لخسارة الوظائف الروتينية بسبب ثورة الذكاء الاصطناعي وجه آخر، ألا وهو إمكانية خلق وظائف جديدة، وظائف قائمة على التعاطف (مثل المعلمين، ومقدّمي الرعاية الطبية، والأخصائيين الاجتماعيين)، أي أن نجعل من الحب مهناً (مثل التعليم المنزلي ومرافقة العجائز) وهكذا نتذكر ما يجعلنا بشراً، يقول «لي».

باختصار، لا بد من «**ثورة مضادة**» تُوازن ثورة التكنولوجيا الجارية، ثورة أخلاقية وفلسفية في النظر إلى الوجود الإنساني على هذا الكوكب، قبل فوات الأوان، إنْ لم يكن قد فات.